الشيخ قارون

أحمد بلقاسم

الشيخ قارون

مجموعة قصصية

الكتاب : الشيخ قارون.
المؤلف: أحمد بلقاسم.
تصميم ولوحة الغلاف: الفنان محمد سعود.
الطباعة: مطبعة الجسور وجدة.
الطبعة: الأولى.2012.
رقم الإيداع القانوني:

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف.

تنويه

كل شخصيات هذه المجموعة القصصية خيالية، وأي شبه محتمل بينها وبين أشخاص في الواقع، محض صدفة!

الإهداء إلى:
كل أهلي وأصحابي
في أي مكان

الشيخ قارون

عملا بنصيحة صديقي، شمرت عن ساعد الجد، وألقيت جانبا غطاء التكاسل، وذهبت مبكرا إلى المسجد العتيق، لأحضر درس العالم العلامة الكبير، الذائع الصيت وأنهل من منابع علمه، ما ينهله الظمآن من عين جارية، حين الرمضاء. غير أن الحظ لم يحالفني لأحظى بالجلوس في الصفوف الأمامية، إذ ما كدت اقترب من المسجد، حتى لفت نظري ما يدل على أنني لست أول الحاجين إلى بيت الله في هذا اليوم المبارك القائظ. سيارات مركونة على طول الأزقة القريبة من المسجد، وجحافل من الدراجات النارية، والهوائية، مصفوفة جنبٌ بعضها يحك جنبَ بعض، وقد استحوذت على الأرصفة، مقرنة في الأصفاد، كقطعان الماشية في رحبة السوق الأسبوعي. على بعد بضعة أمتار من عتبة باب المسجد الكبير، تراكمت الأحذية والنعال، المختلفة الأشكال، والأحجام، الغالية والرخيصة. إذ ذاك، تأكدت من مكانة العالم الجليل، ومن أهمية دروسه، لا ريب أنها بليغة وعظيمة الفائدة. حضرني قول صديقي، الذي حثني على حضور مجلس العالم الجليل:

– إن المريدين كثر، يحجون إلى مجلس فضيلة الشيخ من كل حدب وصوب، يأتون من كل فج عميق، راجلين وركبانا، زرافات ووحدانا. بعدما أسندت دراجتي الهوائية إلى جحافل الدراجات المقرنة بالأصفاد، خلعت نعلي، وألقيت به فوق الركام.

دخلت المسجد، فإذا بي أمام رجل ذي لحية كثة، تكاد تغطي وجهه، بحيث تلتقي بالشاربين الكثين المشذبين بعناية، فلا يظهر سوى الأنف الأفطس، والعينين الضيقتين، بينما يختفي وراء هذا السواد الأزغب، الفم الذي منه تؤخذ الحكمة، والموعظة الحسنة. وأنا غارق في تأمل ملامح الوجه، تذكرت قول صديقي: إنه لنعم الرجل العصامي، كون نفسه بنفسه، لم يرث عن أبيه شيئا عدا – الزلط –والحصيرة، ودزينة من الأفواه الجائعة، والأجساد العليلة، ومن بين هذه الأنقاض، استطاع شيخنا الجليل أن ينهض بنفسه، فحباه الله بالخير الكثير، بالحكمة والعلم النافع الغزير، ومن عليه المنان، بأسلوب سلس عذب، يروق السامعين، ويسبي أرواح الحاضرين، ويأسر لب المريدين. دائما أتأمل وجه الرجل النحيل، وفي نفس الوقت أتذكر قول صديقي:

– لقد زاده الله فضلا على العلم الغزير والحكمة البليغة الأسلوب الرزين، ورباطة جأش وعزيمة لا تلينان، ولا تداهنان، فهو لا يخاف لومة لائم، في الجهر بالحق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، دون أن يطأطئ رأسا، أو يحني هامة أمام أي كان.

بعد ما بسمل، وحمدل، وصلى على خير الأنام، وعلى آله وصحبه وسلم، شرع في الخطبة:

– معشر المؤمنين والمؤمنات، موضوع خطبتنا اليوم، هو، سيرة حياة نبينا الأكرم، عليه أزكى السلام.

فراح يعدد مناقبه عليه السلام، ويستوقفنا عند كل محطة، من محطات حياته الشريفة، مستنبطا منها العبر والدروس، ومنبها إيانا إلى الأحداث الجسام التي اكتنفتها، وعصاه ما انفكت توقظ الغافين، وتنبه الساهين. مستعينا في ذلك بلسانه المبين، حتى كدت أهمس في أذن صديقي:

– فعلا إن في كلامه لحلاوة، وإن في أسلوبه لطلاوة.

لولا أن ذلك ممنوع في مثل هذه المجالس. تململت في جلستي واستأنفت أسمع، وأحدق في الرجل، وهو يتنطط تارة، ويضرب بعصاه على المنبر تارة أخرى، والناس صامتون لا يتحركون، بما يندلق من فمه من عبر وحكم مشدوهون، كأن على رؤوسهم الطير. ومن جديد تذكرت نصيحة صديقي:

– إن لم تكن خاصرتك رخوة، فستتزحزح في جلستك ألف مرة ومرة، حتى تتنمل قدماك، ويتخثر الدم فيهما.

بحلقت فيمن حولي، فإذا هم بأعناق زرافات وبعير، يتطاولون بها على بعضهم البعض، ليحظوا بنظرة من صاحب الحكمة البليغة، والموعظة الحسنة. أنا بدوري كنت أحسد الزرافات، لا على جيدها الممشوق، ولكن على قوائمها الطليقة، وهي تسرح وتمرح في سفانا إفريقيا. مللت الجلوس مقرفصا، ومقوسا ظهري. المريدون الكثر لا يسمحون لي بتسريح ساقي، ولو بمقدار شبر، فكلما هممت بذلك، كانت لي إحدى المؤخرات بالمرصاد، فأتكوم على ذاتي، استحياء من إزعاجهم أو إلغاء جمعتهم.

العيون لا ترمش إلا نادرا، شاخصة، إلى شيخها ناظرة، ولسعيها شاكرة، والحناجر تحوقل. والإمام مسترسل في استنباط الدروس، والعبر من سيرة حياة الرسول الأكرم، الزاهرة بالحب والمعرفة والصبر والبصائر.

-كم مرة بات عليه السلام طاويا.

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وتكبيرة كبيرة، تملأ المسجد من أرضه حتى سقفه.

- ما شبع آل محمد غذاء، وعشاء، من خبز الشعير، ثلاثة أيام متتابعة، حتى لحق بالله.

ينشج من بجواري بصوت أجش:

- يا حبيبي يا رسول الله!

-كانت قدماه، وجنباه تتورمان من خشونة الحصيرة.

أجهش سماحة الشيخ بالبكاء، حتى تخضبت لحيته. أدركت آنئذ سرّ ضيق العينين. قبضت يدي اليمنى، وضربت بها كفي اليسرى، حسرة على من بات شبعانا، والمصطفى جوعانا، حسرة على الذي على المطارح المخملية الوثيرة يتقلب، وعلى ريش النعام يتنعم، وحبيب الله على الحصيرة يتعذب ويتورم.

- مات عليه السلام، ودرعه مرهون عند يهودي لنفقة عياله.

يشهق الخطيب اللبيب شهقة، حتى ظننت أن عزرائيل قد أرخى بجناحيه على منبر حضرته وطار بروحه إلى الرفيق الأعلى، ولم تبق إلا الخشبة، خشبة جسده تدعمها منسأته، وأن دابة الأرض، لا محالة ستأكلها إيذانا

بموته، غير أنها لم تفعل. لأن سماحته استأنف خطبته مشيدا بزهد الحبيب (ص) في الدنيا الفانية.

– ازهد في الدنيا يحبك الله...

والعصا المباركة تضرب بقوة أسفل المنبر، فتنفجر أكثر من اثنتي عشرة عينا دامعة باكية، فلولا انتهاء زمن المعجزات الإلهية، لقلت هذه العصا أخت بل التوأم الشقيق لعصا النبي موسى عليه السلام، التي أغرقت عرش فرعون مصر.

لما قضيت الصلاة، انفض الجمع، وخرجت من المسجد، ولسان حالي يقول لطابور الشحاذين على الرصيف: طوبى لكم أيها المزاليط البؤساء، إن لكم في رسول الله (ص) لقدوة، وفي نفس الوقت، نظرت بعين الشفقة على الأصدقاء الذين "حركوا" للقارة العجوز، طمعا في الدنيا الفانية، وحبا في الشقراوات والفيلات، وأفخم السيارات. حمدت الله كثيرا، وأثنيت على والدي، ودعوت له بواسع الرحمة، وعظيم المغفرة، إذ لم يترك لي مقدار ميليغرام، من وسخ الدنيا. لأهمية ما سمعت ورأيت، كدت أنسى دراجتي التي لا فرامل لها، ولا ناقوس، مغلولة في العذاب. امتطيتها وصديقي، فصرنا نجتر الدرس البليغ، وكلنا يقين بأن الجوع، و"قلة الشيء"، لم تعد مدعاة للشفقة على الجياع، مادام خاتم المرسلين، قد جاع، وبات مرارا طاويا. حدثتني نفسي أن الحضور أيضا خرجوا من مجلس الشيخ الزاهد الوقور بنفس القناعة. و أن عود الريح الذي تئن عجلتاه تحت حملنا، يقاسمنا هو الآخر هذه القناعة.

السيارات الفخمة، والمتهرئة، كانت تمرق متجاوزة إيانا، ونحن لا نبالي بها، ولا نحسد أصحابها على أدران الدنيا، وصوت سماحة الشيخ يطن في آذاننا، ويخز ذاكرتنا كلما سهونا.

– ما شبع آل محمد غذاء وعشاء من خبز الشعير ثلاثة أيام.. ازهد في الدنيا يحبك الله.

تقاطعنا مع إحدى السيارات المارقة، فاضطررنا إلى كبح جماح عود الريح بأقدامنا، حتى انبعثت من عجلته الخلفية، ومن نعالنا، رائحة الاحتراق، احتراق المطاط. فإذا نحن أمام إحدى الفيلات، وقد ظهرت عليها بوضوح، وجلاء، نعمة الله، من زليج بلدي، ورخام، وقرميد، حطت بقربها إحدى السيارات الفارهة، رباعية الدفع. نزل منها رجل يتميّح في عباءته، محملا بأكياس ملأى بما لذ، وطاب من فواكه، وعصائر، وأشياء أخرى ملفوفة بورق ناعم صقيل. الروائح المنبعثة منها تستفز الأمعاء نقيقا، وتحرك في المعدة الجوع الكامن منذ عام الجراد. تأملت وجه الرجل متطفلا، وهو يفرغ صندوق سيارته من محتوياته الشهية، التي كان لها تأثير سحري على معدتي، بحيث استطاعت أن تجذبني إليها رغما عن زهدي فيها، وكذلك فعل صديقي، بل زاد عني حركة برأسه، تحية للرجل ذي اللحية الكثة، التي تغطي وجهه، وتعانق شاربيه المشذبين بعناية لتخفي الفم، قلت لصديقي مستحثا دراجتي على السير:

– هل تعرف الرجل؟

أجابني:

-يجب أن تغير زجاج نظارتيك بآخر أكثر سمكا!

- ولم يا صديقي العزيز؟

- لأن الرجل هو، سماحة الشيخ، العالم الجليل، صاحب الخطبة العصماء، الذي خرجنا توا من مجلسه.

وتلك هي داره، وهذه هي راحلته، وهو يشير إلى الفيلا الفخمة، والسيارة آخر صيحة.

- أتقصد صاحب الفم الأزغب، الذي تنثال منه الحكمة وتؤخذ الموعظة؟

غمغمت قائلا:

-كذب من قال: "وافق شن طبقة"!

نظر إلي صديقي مستفسرا عما غمغمت به، ولما عدم مني الجواب، استحثني على شكر الله على جلائل أنعمه، وأردف قائلا:

- "من أوتي الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا."صدق الله العظيم.

قاطعته غير مستأذن.

- علاوة على الحكمة البليغة، فإن الله تعالى قد زاد شيخنا الجليل بسطة في الرزق.

-كيف؟

- ألا ترى معي؛ أن مفاتيحه لَتَنوءُ بالعصبة أولِي القوة؟

- اتق الله يا رجل!

– الحقّ، الحقّ، أقول: أثر في نفسي ما سمعت آنفا، وأدهش عيني ما رأيت الآن!

– ثواب الله خير لمن آمن، وعمل صالحا.

– لا تخف يا صديقي، لن يخسف الله الأرض بالعالم الجليل، ولن تتورم قدماه، ولا جنباه، ولن يبيت على الطوى قطّ، وإن تورمت خاصرتي، وقدماي، ونهش الجوع معدتي، ومزق مصاريني، طيلة درسه الوجيه، حول الجوع والتورم، وشظف العيش الذي وسم حياة المصطفى عليه أزكى السلام، ودعوته الحضور للاقتداء بسيرة خير الأنام.

– أوصيكم وإياي بتقوى الله، وبأن نتأسى بسيرة سيد البشر، صلوات ربي وسلامه عليه.

– صلى الله عليه وسلم.

– حذار حذار من زخرف الدنيا الفانية، ومن ملذاتها الزائلة.

– ما شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

– أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، والسلام عليكم.

الأب العجوز

الصيف والحرارة، والوقت الطويل، والنهار المديد، لابد من شيء نردم به ثغر هذا الفراغ المستفز.

– هل بالسباحة في ملوية؟

– لا.

ردّت الأغلبية بصوت رجل واحد، فما أحوج جامعتنا العربية لهذه الوحدة، وهذا الاتفاق، في تقرير مصير الأمة!

– لم يبق أمامنا من خيار، سوى ركوب حمار العم بوزيان، ومحاكاة كلين استوود في القضاء على خصومه؟

رُفِض الاقتراح قبل أن يجف حبره، حين تذكرنا كيف عفس الحمار بحوافره على عبد العزيز، وكاد يبقر بطنه.

– إذن لنلعب لعبة الورق؟

– لا، ليس لدينا الرصيد الكافي الذي يمكننا أن نتناطح من أجله.

– طيب يا جماعة، لنجمع العصافير وهي تمارس قيلولتها؟

– لا، تلك لعبة سئمناها.

– فبماذا إذن ندفن جزءا من هذا النهار، اللا منتهي، من نهارات غشت العملاقة؟

– لنتسلل، إلى بستان الحاج المصطفى، ونملأ جيوبنا، وبطوننا بما لذ، وطاب من خوخ، وشهدية، وعنب.

اقترح عبد العزيز. وتصدى له حسن بالرفض البات، وأردف قائلا:

– ما زلت أتألم من أشواك السياج، التي وخزتني وخزا قاسيا في رأسي، وقدمي.

حبيب هو الآخر لم يوافق على هذا الاقتراح، معللا ذلك بشراسة كلاب الحاج التي كادت تنهش أحشاءه، واكتفت بقضم قطعة من سرواله على مستوى الخاصرة، وختم كلامه باسما:

– كدت أعود إلى المنزل مكشوف العورة.

رفع التهامي سبابته، وكأنه يردد الشهادة، لحظة الاحتضار، فقال:

– لم يبق لنا سوى الذهاب إلى سينما زكزل، لنجتر الفليمين المعروضين منذ أسبوع؛ فمن المحتمل، أن يكون الفيلم الفكاهي، للويس فيناس، قد استبدل بالفيلم الهندي، "انتقام الحية" وفيلم" ماسيست" قد عوض بفيلم "بيك بوس".

قوبلت الفكرة بلا جماعية كبيرة، لأن عضوين بارزين في العصابة، دراجاتهما معطلتان.

بعد صمت، وحسن تفكير قال عبد العزيز جاحظا عينيه: وجدتها، وجدتها،

قلنا:

– ماذا وجدت؟

قال:

– لنساهم جميعا بما لدينا من دريهمات، ونحضر الأب العجوز، وننازله منازلة الأبطال، فنجرب كيف يكون النشاط؟

صاح الجميع:

– فكرة عجيبة، تبادلنا النظرات فيما بيننا، وبعد هنيهة التفتوا إلي قائلين:

– أما أنت يا أحمد فساهم، ولا تجرب الخوض في أطوار هذه المغامرة!

– هذا حرام!

غير أني، لم أكن أريد أن أحرم نفسي من متعة الجلوس مع الجماعة، وهي تنازل الأب العجوز، وأن أنظر إلى هذا الأخير، وهو يتغلغل في أحشائهم، ويدب في عروقهم، فيرديهم صرعى، حينا من الدهر، الواحد تلو الآخر.

عند الأصيل، أحضر الأب العجوز، فكنت أرقب مقارعتهم إياه عن كثب، وألحظ كأس الراح، وهي تنتقل من راح إلى راح، ومن فم إلى فم، مترعة، يترجرج فيها الأحمر القاني، كما ألحظ كيف يزم كل واحد شفتيه، ويغمض عينيه، كمن يبكي من شدة ألم، أو يتجرع جرعة دواء شديدة

المرورة، بعد أن يقذف دفعة واحدة بدم الأب العجوز نحو جوفه، فأبادره بالسؤال:

– كيف وجدته، مرّا، حلوا، أم حامضا؟

لكن لا حياة لمن تنادي. يظل السؤال عالقا حتى رشفة أخرى.

قبل أفول الشمس، كان الأب العجوز قد نزف تماما، ولم يبق من دمه سوى قطرة تشهد على فراغ الزجاجة. لكنه قبل أن يغادر حلبة الصراع ترك وراءه أثرا واضحا في صفوف خصومه، تمثل في احمرار خدودهم، وارتخاء شفاههم السفلية، كما أن سيقانهم أمست رخوة، لم تعد قادرة على حمل أجساد أصحابها المتثاقلة المتمايلة، ذات الرؤوس المترنحة. فقط الألسنة وحدها، التي وجدت الفرصة سانحة لتكسر الأصفاد، وتتمرد على سجانها، وتصدح بالغناء، لتبوح بالمشاعر الدفينة المقموعة لليلاها.

تقدم نحوي عبد العزيز، وهو يقدم رجلا، ويؤخر أخرى، متمايلا ذات اليمين، وذات الشمال، فكان يصطدم بأغصان أشجار البرتقال، فيفزع العصافير في أوكارها، فتطير مذعورة دونما اتجاه، قال لي:

– يا أحمد: الأب العجوز، ح ح ح ح ح....

أقاطعه:

– حلو؟

ويستأنف مرددا:

– الأب العجوز، ح ح ح ح ح...

أقاطعه مرة أخرى:

– حار أم حامض؟

يلتقط أنفاسه فيقول بحشرجة متجشئا:

– الأب العجوز ح ح ح حرا ا ا ام.

بعد ذلك هوى برأسه نحو الأرض، موسعا ما بين ساقيه، وشرع يتقيأ الأب العجوز مصحوبا "بالكطعة" حبيبات الزيتون المتمر، والكاوكاو المملح.

بركان 2008

المتسول

ماكاد النادل يندل الطاولة ليضع الفنجان، وأستمتع أنا ببخار القهوة، وهو يتصاعد خيطا ضبابيا، ملولبا، ومشكلا في النهاية أنشوطة، تنتظر بفارغ الصبر رقبة بئيسة يائسة، تملأ فراغ حلقتها، حتى نزل عليّ كجلمود صخر حطه السيل من عل. كأني به قد خرج توا، من ثقب جيب أحد بؤساء فيكتور هيجو، ليقف على رأسي كعلامة استفهام تتلفع بأسمال، تمشي زاحفة بين المقاهي.

إنه رجل يشبه عباس محمود العقاد في كل شيء، إلا في مخه، وعبقرياته، وأطروحاته الفكرية. فلكل وسيلته لبلوغ مرماه، فذاك امتشق قلما، وسطر مسار حياته بإبداعاته المتنوعة، الأدبية والفكرية، فكان سلاحَه في خوض غمار معارك الحياة الضارية. وهذا الواقف عند رأسي، امتشق عصا، ولازمة صغيرة، تفنن في صياغتها وتلحينها، قد يكون أنفق على إخراجها، ما شاء الله من وقته الغالي، كي تجعل سامعها يذوب رقة، وشفقة، ويضم يده إلى جيبه عن طواعية، لتسحب دريهما دون تلكؤ، وتزرعها في يده الممدودة، كيد جابي الضرائب، إن لم أقل كيد عزرائيل، التي لا ترتد إلى صاحبها خاوية.

عدّته بسيطة تسعفه ليمخر عباب خضم الحياة المتلاطم الأمواج. يتقاطع مع صاحب العبقريات، من خلال القبعة التي يعتمرها، والتي تخفي

تحتها رأسا أشمط، الله وحده يعلم ما يعتمل فيه من دسائس، ومؤامرات، ومغامرات. ومن حيث تقاسيم الوجه الدقيقة، التي تحجب بين ثناياها سجلا حافلا بالمفاجآت. والعينان الوثّابتان، كعنوان كتاب، أحرفه طلاسم شديدة التعقيد، والأنف الأقنى المنطوي على نفسه لا يبوح لك بكلمة السر، التي تمكنك من الولوج إلى أغوار النفس المنكسرة. وأما الشارب الأبيض المعقوف، زغبه المشذب بعناية، يبدو كرماح رماة، في حالة تأهب للذود عن قلعة حصينة، فيجعلك تجزم بأنهما توأمان، فضلا عن الشفاه المطبقة على بعضها البعض، بإحكام تام، التي تخفي وراءها فما أدرد، ما تكاد تنفرج حتى ينسل عبرها سؤال مكرور، حاد كشفرة حلاقة، يدفع به اللسان من الكوة السوداء، كرصاصة تلعلع، بالرغم من ضوضاء الشارع، وصخب رواد المقهى، وصوت التليفزيون، تستطيع هذه الرصاصة أن تلسع أذنك حتى لوكان بها صمم.

– صدقة على الله.

تلك هي أوجه التشابه بين الرجلين، أما أوجه الاختلاف فتتمثل في العصا المعلقة على ذراع الواقف على رأسي، ذات الكف المقعرة، المحفوفة بأصابع معقوفة، تنمو فيها أظافر مثل أنياب تقطر أنينا. كفّ ما خلقت إلا لتغرف من جيوب الآخرين، لا لتجود على الوجه القميء، لحظ صاحبها التعس، ولو بصفعة في ليل بهيم. هذه العصا هي الألف الفارقة بين الفعل والاسم، ميزت هذا عن عباس، الذي حمل بدلها يراعا ثقيفا، أنجب أدبا وفكرا.

– يا ولدي راني بالجوع، والله ما أكلت شدق.

حين أكون منشغلا بقراءة الجريدة، أو بتعبئة شبكة الكلمات المتقاطعة، أتجاهل وجوده، وأتظاهر بعدم سماع ندائه...يقترب مني أكثر، فأكثر، حتى تكاد سبابته تلتصق بزجاج نظارتي.

– آسيدي، شي بركة على الله.

– الله يسهل يا سيدي.

يصم أذنيه عن جوابي، ويظل متسمرا في مكانه، لا يتزحزح عنه قيد أنملة، ملحا في الطلب، شاهرا مسدسه، ممطرا أذني برصاص الشفقة والرحمة.

– آسيدي الله يطول عمرك، شي صدقة على الله والوالدين؟

– أفقيا: آية لصالح المعوزين.

– راني على الريق آولدي.

– أكيد "وأما السائل فلا تنهر".

– والله ما كليت والو.. مصاريني كيتقطعوا.

– عموديا؛ السغب.

– إذن هي الجوع، لا، لا، ما تكون غير إملاق.

– نعم، أسيدي الجوع.

– أنت، تعرف معنى السغب!

– الجوع هلكني، شي بركة على الله والوالدين.

– الله يسهّل يا سيدي.

– والله ما فطرت.

– أفقيا، متشابهان.

– الله يحفظك لوالديك، ويطول عمرك.

– سيحفظني الله أيضا ويمد في عمري من أجلك، يا عزيزي العقاد.

يلوذ بالصمت هنيهة، بريق عينيه ينبئ عن عدم فهم للعبارة الأخيرة.

– والله، ما أنا عقاد، ولا معقد، إنما أسعى لما يسر لي ربي وسهل!

– أنا لست كما تتصور؟

– وهل أنت منجم؟

– أنا لست كما قال ذلك الأبله، وهو يشير إلى شخص التهمت وجهه جريدة.

– ماذا قال لك؟

– قال: إني مخ؟

– وما العيب في أن تكون مخّا؟

– لكنّه ما أن ابتسمت لمزحته، حتى أضاف إلى المخ كلمة أخرى.

– ما هي؟

– برْ.

– .....!

– يتهمني بأنني مخبر.

– أنا أتفق معه.

– ماذا دهاك أنت أيضا؟

– دعني أكمل كلامي؟

– تفضل.

– أتفق معه، بخصوص الشق الأول من الكلمة.

– كيف؟

– يعني أنت مخّ.

–.....!

– أفصح.

– لأنك تحصل على أجر يومك، دون كبير عناء، فأنت، تعرف من أين تؤكل الكتف!

– ربما أنت على صواب!

– قل لي، من أين تؤكل؟

– عندما تحصل على الكتف، هاتها لأعلمك من أين تؤكل؟

– فعلا، أنت مخ...!

لا أستطيع التصدي لغاراته، فتجدني أحمل الراية البيضاء مستسلما لإلحاحه، الذي يضطرني إلى إدخال يدي في جيبي، لأخرج منه ما لا يسمنه، ولا يغنيه من جوع. إذ ذاك ينتقل على جناح السرعة إلى زبون آخر، ولكنه لا يختفي إلا ليظهر في اليوم الموالي، والعكاز معلقة على الذراع ترقص،

وجوعه يلازمه كظله، وأنا منعكف على شبكة الكلمات المتقاطعة، أستعرض عضلاتي اللغوية، والمعجمية أمام مراوغات أبي سلمى. بينما هو يعرض على لازمته بصوته الشجي، والسبابة تتحرك كذيل أفعى مجلجلة. لا تتوقف عن الحركة، إلا بعد أن تلسع جيبي حتى النزيف، فيأخذ القطعة النقدية، وقد انبسطت أسارير وجهه المكدود، يزرعها في كفه الأيسر، ثم يختفي وعكازه ترقص فرحا، رقصة إبرة ميزان الجزار.

بركان 2000

ليندا

تستيقظ كسلانة، ومتأخرة كعادتها، وهي تلتهم فطورها على عجل، قالت لأمها:

– بت الليلة سهرانة، مسهدة، أفكر، وأبحث منقبة، في قائمة الأسماء الجميلة، لعلي أجد فيها اسما عصريا يناسبني كشابة يافعة.

تنظر الأم إلى بنتها باستغراب، وتستأنف هذه الأخيرة كلامها متنططة.

–لقد اقترحت علي زميلاتي ما يلي: هند، هبة، هالة، رانيا، روبي، مايسة، دلال، وليندا، ولقد استحسنت هذا الأخير، لخفته على اللسان، ولوقعه الموسيقي على الآذان.

– لم أفهم شيئا ...؟!

– استقرّ رأيي، على ليندا، بالألف، وليس بالتاء، أنثى مثلي، لا تحتاج إلى تاء تأنيث مبسوطة كانت أم مربوطة؟

– ماذا دهاك؟

– أنسيتما؛ أنت وأبي، طلبي بتغيير اسمي، باسم آخر، أجمل، وأليق بفتاة عصرية، مثلي؟

قالت ذلك وهي تبرز صدرها الناتئ، وتمدد جيدها النحيف، وتمطط شفتيها الثخينتين، وتختم ذلك المشهد بإغماض العينين نصف غمضة، مرددة:

– لييننندا،لييننندا،يا للروعة، اسم على مسمى!

ردت الأم بعد أن مجت اللقمة من فمها، ووضعت كوب الشاي النصف المملوء في الصينية النحاسية.

– هل جننت، أم ماذا دهاك؟

– وهلاّ، وجدتما إلا الزبدة، لتشتقا لي منها اسما، من دون سائر الأسماء؟!

– آه يا طائشة، كم أنت مغرورة بنفسك وشبابك، بل أنت مريضة، يجب أن نعرضك على طبيب نفساني، أو على فقيه سوسي أكيد شفاؤك يكون على يده.

– لست مريضة، ولا مغرورة، وأنا في كامل قواي العقلية، وأنا جادة فيما أنوي فعله، بل سألجأ بنفسي إلى المحكمة، لتحقيق هذا الغرض إن اقتضى الأمر ذلك.

– أستغفر الله العظيم، ماذا أسمع؟

– أن أكون فنانة، ينبغي أن يكون لي اسم فني جميل.

– ..... !

– سأشارك في مسابقة غنائية؛ وصوتي لا يقل عذوبة عن غيري من نجوم الفن المتألقات.

– ياك ما اتصلتي باستوديو الهم والعفن؟

– ولم لا، وأنا صاحبة الصوت الرخيم، والقد المياس، والخصر المرن، والأرداف المستديرة، والثغر ذي الشفاه الندية، والعيون العسلية، والخدود

الوردية، والشعر الفاحم الأسيل، والصدر الناهد الواعد، والذراع البضة الطرية، والجيد الممشوق؟

-العياذ بالله!

- كل هذه الأوصاف، تغري أكبر المخرجين بأن أكون نجمة ساطعة في أحد أفلامه.

- سأهيئ لك الكفن، وأدفنك وأستريح منك إلى الأبد؟

- من الآن فصاعدا، أنا، اسمي ليندا.. لييييييندا هل سمعت؟

- كان يجب عليك أن تسهري الليل في المذاكرة، استعدادا لامتحانات نهاية السنة، بدل أن تشغلي عقلك بهذه السخافات الخسيسة.

- السخافات؟ السخافات هي هذا الجبل، الذي أئن تحت حمله، إني أكره الاسم الذي سميتمانيه، "زبيدة"؟

- زبيدة هو اسم المرحومة جدتك، التي كانت...

قاطعت زبيدة أمها قائلة:

- كانت امرأة ونصفا، وذات وقار، وحشمة وحياء، وهمة، و.و.و.

- وأي عيب في أن ترثي عن جدتك، اسمها يا جاهلة!؟

- الجاهل هو الذي لا يعرف كيف يسمي الأشياء بأسمائها.

- هذه إذن هي شطارتك، وهذه هي نتائج تحصيلك، وتعليمك يا للخسارة!؟

– ليكن في علمك، أنه إذا كان لكما الفضل في تسميتي بما شئتما من أرذل الأسماء، فلن يكون لكما الفضل ثانية في تزويجي بمن ترضيان، وتحبان من الرجال!

– (لهلا يحيينا لذاك النهار.. عش نهار تسمع أخبار)، انصرفي، واغربي عن وجهي وإلا..

– هكذا، يكون عصر الحجر، والوصاية قد ولى بلا رجعة.

غمت الأم بهذا الكلام الصادر من الفم الذي رضع حولين كاملين من ثدييها، تراجعت إلى الخلف عن المائدة غاضبة وهي تقول:

– اخرسي، واهتمي بدروسك، وإلا دعوت أباك أن يوقفك عن مواصلة الدراسة، الدراسة التي لم تستفيدي إلا من فتاتها يا بلهاء.

– المهم أنا لييييييندا، وطلبي باستئصال الاسم الرث العتيق، لن أتخلى عنه.

نادت زبيدة على أخيها، طالبة منه أن يحضر لها حقيبتها اليدوية، كي تقوم ببعض الرتوشات على محياها قبل أن تغادر المنزل.

استمر السجال بين الأم، وفتاتها محتدما، عاد الأخ الأصغر وهو يمسك حقيبة جلدية رمادية اللون، وبينما هو يناولها لشقيقته، زلت به قدمه، فقلب الحقيبة رأسا على عقب، وتناثر ت محتوياتها بشكل عشوائي فوق المائدة. انهالت زبيدة، على شقيقها بوابل من السب والشتم والتوبيخ، وهي تلتقط أغراضها بسرعة وجنون، في حين أطلقت الأم صرخة استغراب ودهشة.

– (أويلي واستغفر الله)، ما هذا أيتها المجنونة؟ وهي تلتقط علبة حبوب منع الحمل التي استقرت في حجرها، وشهرتها في وجه زبيدة، التي ظلت صامتة لا تحرك ساكنا، ثم ما لبثت أن انفجرت تدفع عنها الشتائم، والتهم التي تكيلها لها أمها بشكل هستيري.

– وهل تريدينني أن أعيش حياتي مكبوتة؟

– ماذا أيتها السافلة الوقحة؟ لمن هذه الأقراص؟

إنها لي، وأنا منذ أزيد من ستة أشهر وأنا أستعملها؟

– تقولين هذا، ووجهك أحمر، دونما خوف!

– وهل ترغبين في رؤيتي ببطن منتفخة، وأنا ما زلت تلميذة ولم أُنْه بعد دراستي؟

بعد هذه الكلمات التي نزلت كالصاعقة على رأس وسمع الأم، لم تتمالك هذه الأخيرة أعصابها، ظنت أن ابنتها مخدرة، فهمت برشقها بسكين الزبدة، لكنها لم تفلح في ذلك، لأن قواها خارت، فسقطت مغشيا عليها، أطلق الطفل الصغير الذي كان يعاين المشهد عن كثب، صرخة استغاثة قوية،

– ماما، ماما، لا تموتي؟

إثر ذلك، هرول جيران الطابق العلوي، لنجدة المنكوبة، فقدموا لها الإسعافات الأولية، بأن وضعوا في يدها مفتاحا، ورشوها بالماء البارد، وبماء الزهر، وشرعوا يبسملون، ويتعوذون بالله من الشيطان الرجيم، وفي الأخير استقر رأيهم على نقلها إلى المستشفى، حيث وضعت في غرفة العناية المركزة. كما اتفقوا على إشعار بالواقعة.

الزوج، المعروف في الحومة بالحاج، أغلق دكانه فور تلقيه الخبر، هرول على جناح السرعة إلى المستشفى، حيث ما فتئ يسأل كل ممرض، وممرضة عن حالة الضحية، وعن الخطر الذي يهدد حياتها، لم يكن يميز بين ممرض، وطبيب، فكل ذي وزرة بيضاء، هو طبيب في نظره. أخيرا؛ وبعد لف ودوران، في متاهات البناية التي بدت له جدرانها، وسقف ممراتها شاحبة كالحة اللون، مثل وجهه، وجد من ينتشله من دوامة حيرته، طبيب في مقتبل العمر، مكتنز الجثة، متوسط القامة، أبيض البشرة. لحيته الكثة السوداء والمشذبة بعناية، تضفي عليه هالة من الوقار، سحبه برفق إلى إحدى الغرف الشاحبة، وأجلسه على كرسي كالح.

– تفضل يا حاج!

– لقد هدّ التعب جسدي، والروماتيزم نهش عظام ركبتي، يا بنيّ.

بابتسامة اطمئنان بيضاء، رد الطبيب الشاب بصوت خفيض:

– سيدي؛ حالة السيدة زوجتك مستقرة في هذه اللحظة!

– ماذا أصابها؟

– إنها تعاني من انهيار عصبي حاد، يحتاج إلى عناية مركزة.

– شكرا سيدي، ولكن ما السبب؟

– هذا، ما نود نحن أن نسألك عنه؟

–.....!

بعد فترة قصيرة من الأسئلة، وبعدما وقف على زوجته وهي ممدة على سرير، مغمضة العينين يربطها بالدنيا أنبوب مطاطي موصول إلى زجاجة، تجود عليها بقطرات الحياة. حين أراد الحاج مغادرة المستشفى، ويده على جبينه، يفكر فيما حل بزوجته، سأل إحدى الممرضات:

– أين يمكن أن أجد زبيدة؟

– هل هي نزيلة؟

– ماذا؟

– هل زبيدة مريضة؟

– لا، إنها ابنتي؟

– متى دخلت إلى المستشفى، وممّ تعاني؟

– أمها هي التي تعاني، أما زبيدة فهي دكتورة.

– دكتورة!

– أريد أن أقول طبيبة جراحة، شهادتها عالية، علو طموحها، مختومة بخاتم عصي قوات التدخل السريع الغليظة، حبره من بصاقهم على الوجوه التي لا تستحيي من المطالبة بحقها في الشغل، ميزتها، تعنيف مشرف جدا.

– زبيدة، من؟

– زبيدة ابنتي، في أي جناح أجدها سيدتي؟

– سيدي، لا توجد في هذا المستشفى طبيبة بهذا الاسم؟

ردّ بصوت متهدج:

– أنت، مخطئة، ابنتي زبيدة، وعدتني أن تكون طبيبة وطبيبة جراحة؟

سحبته بلطف نحو المصعد بعد أن سلمت إحدى زميلاتها ملفا ثخينا، وضغطت على الزر رقم أربعة، ولسان حاله ما انفك يردد لازمته:

– سيدتي؛ زبيدة ابنتي طبيبة جراحة، شاطرة، تجرح من الوريد إلى الوريد.

بشيء من الحيرة، وبعين من الشفقة كانت الممرضة تنظر إليه وهو يخاطب شبحا لايراه إلا هو:

– طلب العلم، فريضة يا أم الخير.

– آلحاج؛ البنت تبدو غير طبيعية، تصرفاتها تنبئ بحدوث كارثة!

– الحاجة، اكبحي جماح غيرتك المشتعلة من البنت، لا كارثة ولاهم يحزنون، هي منشغلة بالدراسة، هكذا هو حال بنات اليوم؟

أغمي عليه حينا من الوقت، واستفاق على صوت خفيض يحثه على:

– الرجوع لله سيدي، تمالك نفسك؟

– أين أنا؟

– في المستشفى، يا حاج، سيفحصك الطبيب، ربما تعاني من انخفاض نسبة السكر في الدم؟

– نعم، أنا أعاني، أعاني.....

يغيب عن وعيه من جديد.

في المساء، دخل الحاج منزله مهموما حائرا، ينقب في أدغال خياله، عن الحل للخروج من الأزمة التي عصفت به، وبأم الخير. دخل في غيبوبة، وعيناه مفتوحتان، تنظران، ولا تبصران شيئا، عدا زبيدة.

– زبيدة؛ بنيتي! ماذا تتمنين أن تكوني حين تكبرين، وتنجحين في دراستك؟

– أحب أن أكون طبيبة جراحة، يا بابا!

– ولم طبيبة، وليس أستاذة كبيرة؟

– لا أدري، يا بابا!

– لا يا كتكوتتي الجميلة، خبريني.

– سأصبح طبيبة، لكي أعالجك أنت، وماما، إذا مرضتما، فهمت؟

– الله يحفظك، و"ينجحك".

د خل الحاج في مجاهل عالم غريب. بينما خرجت زبيدة ليندا إليه، لتبدأ رحلتها بثاني خطوة في درب المجهول.

– أماكان لك لتنتظري، حتى تتذوقي الثمرة ناضجة، بدل أن تبتلعيها نيئة مرة؟

– يا أبتي، قد وعدني بالزواج.

– أي زواج، زواج الخفافيش، والصراصير؟

– يا لخبية أملي.

– ما أمرّ طعم الغدر والمعصية، وما أقسى سمّ الوخز، بشوك الخطيئة!

– أجل فأي رداء ترتدينه، عراء.

تكهربت خياشيم الحاج، منذرة بوشوك خروج عطسة، شديد المفعول، فاستنفر لها كل كيانه، أُسدلت الأجفان، وانتفخ الصدر، وارتدّ اللسان شيئا ما إلى الحلق، واتسعت جيوب الأنف؛ فانطلقت سلسلة من العطس الشديد، أسفرت عن سقوط طاقم أسنانه من فكه الأسفل، وإصابة أحد أنيابه بتهشم معيب.

التقط الطاقم وهو يردد:

– سأصبح طبيبة جراحة، لكي أعالجك أنت، وماما، إذا مرضتما؟

بركان 2000

اختراع

مع انقضاء شهر غشت، أخذ النهار في الانكماش، والانطواء على نفسه، شيئا فشيئا، مستعجلا الرحيل قبل أن نُشْبِعَ أنفسنا من اللعب، ومن الانتعاش بالغطس في السواقي الضحلة. سياط شمس الصيف اللافحة بدأت هي الأخرى تبهت، خيطا فخيطا، مرتدّة على أعقابها، مثل شعيرات شاردة، في خصلة عجوز شمطاء. فما كان منا، نحن عصابة الدوار المشاغبة، إلا أن نغير من إستراتيجيتنا في استغلال أكبر حيز من الزمان؛ لنستفيد بأكبر قدر ممكن من ضوء النهار، لممارسة شغبنا. فاتخذنا قرارا حاسما أن نقوم مبكّرين، حتى لا ندع للنوم فرصة ليسطو على وقتنا الثمين ويقضم قضمة عميقة، من نهارنا، ونحن في غفلة من أنفسنا. فمع أول إطلالة للشمس تجدنا نملأ الحارة، بجلبتنا وصخبنا، وكأننا قضينا ليلة بيضاء.

استيقظت باكرا كما تعاهدنا، وتناولت فطوري على عجل، خرجت من المنزل؛ وأنا ألوك ما تبقى من طعام الإفطار وأزدرده بسرعة، لأباشر يومي الجديد باللعب مع شرذمة الأصدقاء الأوفياء، توجهت إلى ورشة الصناعة، تحت شجرة التين الوارفة الظلال، لأتمّ

صناعة السيّارة التي كنت قد بدأت في تركيب أجزائها نهار أمس، بعد أن صنعت هيكلها من صفائح العلب القصديرية، التي طالما تساءلت عن سرّ اليدين المتشابكتين، المرسومتين عليها باللونين الأحمر والأزرق، توصّلت إلى فك طلاسم ذلك السرّ، بعد ما ينيف عن عشرين عاما من الدراسة الجادة؛ يعود الفضل في ذلك إلى الحكمة القائلة ابحث تجد.أمّا مقود السيّارة فقد صنعته من الأسلاك التي تكون قد تخلّت عن وظيفتها كعرى للدّلاء، كنت أبحث عنها في المتلاشيات فإن لم أعثر عليها هناك، فأيسر السبل للحصول عليها؛ هو السطو على أسلاك نشر الغسيل، إذ لا يعقل أن أترك سيّارتي بلا مقود؟ وبالمقود الجيد تقاد مواكب الأمم، وبدونه يفقد القائد السيطرة على زمام أمور رعيته. وأما صنع العجلات فليس بالأمر الهيّن، كما يتوهّم المتوهّمون؛ فالمادة الخام لصناعة هذا الجزء الحيوي في السيّارة نادرة، لذلك كنت أضحي بالشطر الأول من الحكمة البليغة القائلة في العجلة الندامة، وفي التأني السلاّمة، مكتفيا و مستحليا في الوقت ذاته، الشطر الأخير منها، فأتأنّى للحظات وجيزة، لأهرول ونصل السكين الصدئ في يدي، بحثا عن أي نعل مطاطي أصادفه في طريقي، فأقطّعه على شكل دوائر، وإن كان لازال في عمره بقية، لأصنع منه العجلات، التي أفنى السومريون ردحا من حياتهم في اكتشافها، العجلات لا تقلّ أهمية عن المقود؛ فهي محور الحركة، بدونها تصاب الحياة بالشلل التام، بالرغم من هذا

لا أنصحكم بتقليدي في هذا الصنيع؛ فقد تكافأون بجرح عميق إن على مستوى السبابة، أو على مستوى الخنصر، فيتعذر عليكم إيصال اللقمة إلى أفواهكم الجائعة، والتي لا يملأها في الأخير إلا الدود والتراب، تَذَكَّروا أن العجلة من الشيطان؟

لم تسلم دراجة أبي من اختراعي هذا، أبي الذي سافر إلى ما وراء البحار، وما وراء حقول تفاح إسبانيا والبنان، طبعا سافر أو هاجر من أجل إسعادي، لذلك لن يحزنه إن أنا ألحقت بدراجته الهوائية بعض الأذى. أذكر أني ذات لحظة نزق وطيش نزعت شعاعا – ريون– من إحدى عجلاتها لأثبت به عجلتي سيّارتي الجديدة. سمعتني أمي أستسمح أبي من على بعد آلاف الأميال، على ما أقدمت عليه، وقد فتحت قاموس الاعتذار حتى آخر صفحة فيه، واعدا أبي بأهمية براءة اختراعي، ومطمئننا إياه بالمستقبل المشرق الذي ينتظرني في مجال صناعة السيارات. فنادت عليّ متسائلة:

– ما بك ولدي؟

أكيد أنها ظنّت أنني أصبت بمكروه، وأغلب الظن أنها اعتقدت أن بي مسّ. فرددت عليها بهدوء كي يطمئن قلبها:

– لاشيء.

– مع من تتكلم؟

– إنني أمازح دراجة أبي فقط.

– وهل للدرّاجة آذان؟

– أجل قالت لي جدتي: كل ما هو موجود على الأرض يتكلم ويسمع.

بعد أن وضعت اللمسات الأخيرة على اختراعي التكنولوجي الهائل، أخضعته للتجريب، حركت العجلات إلى الأمام، ثم إلى الخلف، وحركتها يسارا ويمينا، بفضل المقود السالف الذكر. ألم أقل لكم إن المقود يتحكم في الاتجاه إلى اليسار، كما يتحكم في الاتجاه إلى اليمين؟ بدونه ما كانت لتَتِمّ هذه الحركة الآلية العجيبة، بهذه السلاسة، ولبقيت العجلات تتجه في خط مستقيم نحو الأمام، أو إلى الخلف!

أخيراً، قرّرت أن أخرج منتجي العجيب إلى العالم، ليراه رفاقي في الدوار، وأنال وسام براءة وبراعة الاختراع والاستحقاق. وما يدريني قد يطلب مني بعضهم أن أصنع له مثل الذي صنعت، وقد تتحول ورشتي إلى مصنع كبير. يلتهم كل نعال نساء القرية وأسلاك نشر الغسيل. صدق من قال التكنولوجيا سلاح ذو حدين.

بما أنّ لكل بداية نهاية، فإنه حينما انتهى شغفي بسيارتي وبلغ حدّ التخمة، قررت بيعها لشغوف جديد، أعجب بها أيما إعجاب، وبينما أنا أتناول طعام الغذاء، صحن ممتلئ بالفاصوليا وبجانبه قصعة صغيرة من الهندية والتين، إذ بطارق يطرق باب منزلنا طرقا متتاليا، قمت مسرعا لمعرفة من يكون هذا الضيف السعيد

الحظ، وماذا يريد في هذا الوقت بالذات؟ فهو ليس وقت الزيارات، فإذا بي أجد جمال، الولد الذي قدم من وجدة، ليقضي بعضا من العطلة الصيفية، عند جده الحاج حماد، كان يحمل عشا يحتوي على عصفورة موثقة الساقين، تحضن بيضا. قبل أن أسأله عن سبب الزيارة، بادرني قائلا:

– أريد أن أشتري منك السيارة.

– هل معك نقود؟

– هذا هو الثمن.

– ولكن، أنا أريد نقودا؟

– بهذه العصفورة وهذه البيضات، ستكسب مالا كثيرا.

– كيف؟

– ستفقس البيضات، وتحصل على فراخ، وكل فرخ تبيعه بخمسة دراهم أو أكثر.

– اتفقنا؟

– نعم اتفقنا.

– هات السيارة، وخذ العش.

قبلت بالصفقة، وأحسست بحنين وحب جارف نحو سيارتي الجميلة، بدت لي وأنا أقودها إليه، كأني أودّع عزيزا علي، حتى كدت أذرف عليها بعض العبرات، ولولا خوفي من أن يظن أنني ضعيف، لكنت فعلت ذلك. لقد تعلمت من أصدقائي، ومن

كبار أهل الدوار، أن الرجال لا يبكون أبدا مهما طفح كيل محنهم، فالبكاء منذور للنساء فقط.

وضعت العش في النافذة الواطئة، وعدت ألتهم ما تبقى من الفاصوليا، والهندية والتين. ما أن فرغت من ذلك حتى أسرعت نحو العش، أتفقد عصفورتي الجميلة، حاملا لها فتات المائدة وشيئا من التين، يجب أن أتعهدها بالرعاية التامة، إذ بفضلها سأصبح من تجار القرية المرموقين، فأول السيل قطرة.

كم كان فزعي كبيرا، لما وجدت العش مقلوبا، وبالقرب منه قشور البيض، والريش يتطاير من حوله. رفعت بصري إلى السماء شاكيا مصيبتي لربي، فإذا بي ألمح أعلى جدار الحوش، قطة من قططنا الكثيرة، تقفز إلى السطح وفمها مملوء بشيء ما، لمّا أيقنت أن الذي تمسك بخناقه هو العصفورة، عالجتها بفردتي حذائي فلم أنل منها شيئا، سرعان ما اختفت، حينها أدركت أن مشروعي التجاري الهام، قد اختفى في بطن قطتنا الشرسة الخبيثة.

أقسمت بأغلظ الأيمان ألا تمر جريمتها دون عقاب وأن تدفع الثمن غاليا لقاء خيانتها، نصبت لها كمينا محكما؛ علبة سردين داخل قفص، سال لعابها كخيوط العنكبوت قبل أن تغامر، وتلج القفص مفتوحة العينين لتلتهم السمك اللذيذ، تدفعها رائحته المثيرة للجوع بين قضبانه دفعا. ما إن انهمكت في ابتلاع السمك حتى أسرعت نحوها كالسهم لأحكم إغلاق القفص، أبقيت عليها

رهينة المحبس، لا تنال إلا الماء، والخبز الممرّق، وبعض الديدان، التي نصحني جمال أن أطعم بها العصفورة الراحلة، قلت لها في نفسي: تلك هي عقوبة الخونة الذين لا يحفظون العهود، تلك هي عقوبة من يتعدى على ممتلكات الغير.

ولولا خوفي من عاقبة أمري الوخيمة، وان يصيبني ما أصاب تلك المرأة، التي أدخلت النار بسبب هرّة، لتركتها في السجن إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

بركان أكتوبر 2011

– تفضل أيمن، امسح السبورة.

– حاضر أستاذ.

– أما أنتم، يا جماعة.. (يقاطع أحد التلاميذ الأستاذ) قائلا:

– الآن؛ حصة التربية التشكيلية أستاذ.

– أراك تتتبع الأحداث عن كثب يا سمير. ولكن قبل ذلك كوثر، خالد، حسن، اجمعوا دفاتر التطبيقات.

الفرحة تقتلعهم من مقاعدهم. فرحة عبروا عنها بخفتهم وتلهفهم في إخراج كراسات الرسم والأقلام الملونة.

– ماذا نفعل يا أطفال. نرسم رسما حرا أم نوحد العمل؟

غص القسم بضجيج الفرح والمرح.

رسم حر...لا عمل موحد...رسم...عما.. ش ش ش سكوت انتبهوا ا ش ش ش...

– حتى لا نظلم أحدا. ارفعوا أصابعكم يا من تريدون رسما حرا. طيب 1-2-3-15.

– والآن أصحاب العمل الموحد: ارفعوا أصابعكم. 1-2-3-17.

–إذن الذين يرغبون العمل الموحد هم 17.

– لا يا أستاذ بل عددهم 16.

–كيف ذلك يا عمر؟

– لأن سعيدا رفع أصبعين.

– لا بأس، وكما علمتنا السيدة الديمقراطية، فالحكم، والغلبة للأغلبية؟

– نااااعم.

– اتفقنا.

– نا ااا عم يا أستاذ.

– (نعم) بدون ألف. لست أدري من أين أتيتم بهذه الألف الممدودة مثل أعناقكم،

موضوع درسنا في هذه الحصة، هو رسم الأسد.

صاحوا مسرورين جميعا: الأسد، الأسد، آآآه جميل.

– تعرفون الأسد؟

– نا ا ا ا عم (هل نرسمه جالسا أم واقفا. قال أحدهم. وأضاف آخر نرسمه يجري).

تدخل الأستاذ، ليحسم في الأمر:

– ارسموه كيفما شاهدتموه.

بدأوا يخربشون ويمحون، يكسرون الأقلام ثم ينجرون، يلونون والفرحة دائما تُقتلعهم من مقاعدهم كأنهم عصافير فرت توا من أقفاصها، جذوعهم منحنية على الكراسات، عيونهم مثبتة على الصفحة البيضاء،

وشفاههم تكاد تقبلها. فرح ومرح ونشاط مبالغ فيه عكس الحصص الأخرى، حصص التراكيب والصرف والتحويل والإملاء، حيث رتابة الكآبة ترخي بظلالها على معظم الوجوه.

- أنهيت عملي يا أستاذ. (قال أيمن)
- حتى أنا. (ردّ نصر الدين)
- وأنا أيضا. (أردف عبد الحكيم)
- طيب. هاتي كراستك يا أيمن.
- حاضر.
- جميل، لوّن الجسد باللون الأصفر، وليس باللون الأخضر.
- حاضر أستاذ.
- ناولني كراستك يا سعيد!
- نعم.
- ما هاتان الدائرتان، وهذه النصف الدائرة؟
- رأس الأسد، وعيناه، وفمه، وهو يضحك.
- الأسد يضحك؟
-...يبدو لي.
- أرني يا جمال، ماذا رسمت ما هذا؟
- الأسد.
- وأين العينان؟
- إنه نائم.

ابتسامة كخيط شمس، انسلّ من بين يدي غمامة، وشحت ثغر الشبل، ثم انصرف مزهوا، وهو يتنطع نشوان بما كسب من علامات.

– تعال يا مراد، لنرى ماذا أبدعت أناملك.

– هاأنا ذا أستاذي.

– لماذا لونت العينين باللون الأحمر؟

– إن الأسد غضبان.

– ولم هو غضبان؟

– لأنه جائع.

وميض بسمة خاطف مرق كالسهم من الفم الصغير البريء.

توالى عرض اللوحات مشفوعا بالتعليقات، ووشوشات المرح تملأ الفصل.

– بشرى اشحال ديتي.

– سبعة.

– وأنت.

– ثمانية.

– كريم اشحال.

– عشرة مبرزا أصابع يديه العشرة.

– قل والله.

أخيرا وقف أحمد خَجِلاً. فتح كراسته. نظر الأستاذ إلى إبداعه، رفع عينيه إليه متسائلا.

– ماذا تعني، هذه الدائرة، التي يتوسطها قرصان، وهذا الخط المستقيم الذي يربط الكل بهذا المستطيل، الذي يقف على مستقيمين متوازيين؟

– الأسد، هذا هو الأسد آسي كما رأيته.

الخدان صبغا بالأحمر، أقصد خدي أحمد، لا خدي الأسد، حتى الأذنان، احمرتا فكادت تنزفان.

– قل لي، هل شاهدت يوما ما الأسد؟

– سي نعم.

ثم أطرق عينيه، ينظر إلى ما رسمت أنامله الفتية.

– أين رأيته، في الحديقة، أم في شريط وثائقي مصوّر؟

– أستاذ، شاهدته وهو يركب سيارة كبيرة، وجميلة، وكان يرتدي ثيابا أنيقة.

– أين تم ذلك، في السيرك؟

بعدما ابتلع ريقه، ليبلل حلقه الذي الجاف، أجاب:

– لا، بل رأيته يمشي على رجليه، وهو يحيّي الناس.

– كيف؟

– ملوحا بيديه، و هويبتسم صاعدا سلم طائرة.

– طائرة!

– سي، نعم، طائرة فخمة، على جانبيها خطان: أحمر، وأسود، كتب عليهما: خطوط الجمهورية العربية السورية.

اهتزت أرجاء القسم للحظات، لدوي وابل من القهقهات، كما افتر ثغر أحمد عن ابتسامة ندية، وهو ينظر إلى العلامة التي وضعها الأستاذ على هامش إبداعه، بعينين صافيتين بريئتين، براءة ما رسمت يداه.

بركان- 24-03-2009

اشتهاء

من عادتي ألا أغادر البيت إلى العمل، قبل أن أتناول فطوري، ولا دون حلق ذقني، ذلك هو دأبي منذ نعومة أظافري، ومنذ رهافة زغبي. غير أنه في ذلك اليوم من أيام دجنبر الباردة الشاحبة، والمقتضبة، حصل العكس، فقررت أن أتناول فطوري خارج البيت، وأسلم أمر معالجة ذقني للحلاّق، لا بأس من المساهمة في تطور اقتصاد البلاد، والدفع بعجلة التنمية النائمة دورة إلى الأمام؛ إن أنا تخليت عن عادتي تلك، إما تقاعسا، أوتكاسلا.

توجّهت رأسا إلى أسفل شارع، مبارك البكاي لهبيل، أول رئيس حكومة مغربية بعد الاستقلال. حيث تصطف مزدحمة، بعض دكاكين الحلاقين، تتخللها دكاكين بعض السّاعاتيين الضيقة، تقابلها المقاهي الشعبية، التي كانت حتى عهد قريب، تعلّق أبواقا، ومكبرات الصوت، الموصولة بآلة الفونوغراف، لتشنف أسماع روادها بأروع أغاني الشيوخ المحليّين: أحمد ليو، علي التنيساني، اليونسي، وعبد الله المكانة. وشيوخ من الجارة الجزائر، أمثال خليفي أحمد، حمادة، رابح درياسة، المدني، محمد بلخياطي، وأسطوانات لفنانين آخرين، لا تخلو من طرب، كوراد بومدين، ونورا، والعرفة، وبناصر وخويا، وحادة وعكي. كل بوق بما فيه ينضح ويصدح، جلبا لزبناء يجزون أوقاتهم، متلذذين بفناجين القهوة لَمْغَلْيَة، وكؤوس الشاي المنعنع، والمشهشب.

أن يكون هناك فرق بين من هم في أعلى هرم المجتمع، وبين من هم في سفحه، فهذا أضحى من بديهيات الأمور، منذ أن ألقى الله بآدم من الجنة إلى الأرض، لكن، ما لم أستسغه، هوأن تنتقل هذه العدوى إلى الجماد، مهما كان نوع هذا الجماد: قاعة سينما، عمارة، باخرة، شارع، أو مدينة.دائما يحظى الأعلى بما هوأفضل، وأنقى، وأجمل، ففي الشارع المذكور يوجد في أعلاه: المسرح الملكي، ثانوية أبي الخير، بيوت بعض المستعمرين، النظيفة الأنيقة، وغير بعيد عن ذلك، توجد الباشاوية التي تحولت فيما بعد إلى عمالة، محفوفة بحدائق وإن كانت متواضعة، ويقل هناك الصخب، والهرج، والمرج، وتكثر الأشجار والأزهار، والرصيف يحتفظ برونقه فزليجه، لا يشكو من زحف الفضلات، والمتلاشيات عليه. بينما أسفله يعاني الأمرين من الحفر، وبقع زيت محركات السيارات، وانبعاث الروائح الكريهة من البالوعات المخنوقة، والرصيف رفع راية الاستسلام، أمام غطرسة القمامات، محج مختلف الحشرات المرئية والمجهرية، النازفة بسوائل مقززة، تثير الغثيان، إلى غاية كتابة هذه السطور، لم أجد تفسيرا مقنعا لهذه الظاهرة المستعصية على الفهم، والتي يبدو فيها الفرق بين ما هو أعلى، وما هو أدنى، كالحد الفاصل بين الروح والجسد.

شعرت بالارتياح، لما رأيت مقعد الزبناء شاغرا، في المحل ذي المساحة الضيقة؛ ثلاثة أمتار على مترين، أرضيته تشبه أرضية فصل دراسي قديم، تزخر بمربعات بيضاء، وسوداء من الزليج، رصت على شاكلة رقعة الشطرنج، جدرانه كالحة، على الرف الزجاجي وضعت آلة الحلاقة اليدوية،

التقليدية، بجوارها تنتصب في شموخ قارورة عطر سعة لتر واحد، نصف مملوءة، المميزة بصورة فتاة تعتمر قبعةكوي بوي كبيرة، كما وضعت علبة لمسحوق طالك الصفراء، وفوق الرف عُلّقت المشحذة، وبضعة مقصات، مختلفة الأحجام والأشكال، والحلاق منكبّ، يرتب، ويوضب عدة عمله فوق المنضدة، والكرسي شاغر ينتظر أول جالس يحتضنه.

- السلام عليكم ورحمة الله.
- وعليكم السلام، ورحمة الله تعالى، وبركاته.
- أريد حلق ذقني لو سمحت.

بعدما نزع ورقة من اليومية العصرية المحفوفة بإكليل من سنابل القمح، التفت إلي وقال:

- تفضّل.
- شكرا.
- على بركة الله.

شرع يضغط بقدمه على دواسة أسفل الكرسي الوثير، ليرتفع رأسي إلى مستوى صدره، ويكون في متناول راحتيه، فأمرني بأن أعدل من جلستي مسندا رأسي إلى مسنده، فصرت أرمقه بنصف عيني، عبر مرآة الصالون التي مكنتني من رؤية ببصيص من البصر الشارع. بعدما زرّر وزرته الزرقاء، التي تخفي تحتها بذلة سوداء، بدأ يطلي حنكي بمعجون الصابون مستعينا بأطراف أنامله الرقيقة، شعرت به باردا، ثم بلل فرشاة الحلاقة بالماء بغية ترطيبها، وأخذ يمررها على الذقن الشائك، بحركة دائرية من أسفل الذقن

إلى الأعلى، ثم من أعلى الخدين إلى الأسفل، فشعرت هذه المرة بالدفء يطرد البرودة. واستسلمت لنعومة الصابون، والفرشاة، وتمنيت لو أنها تستمر لمدة أطول، وتنتقل لسائر جسدي. فجأة توقف عن الدّلك، ووضع الفرشاة في إناء شاحب اللون، ودون سابق إنذار ولاّني ظهره، واتجه بسرعة نحو الباب، حرك رأسه يمنة ويسرة ماسحا به الشارع، الذي بدأ دبيب الأقدام يتصاعد فيه. حينئذ، لمحت شعره المنسدل على رقبته، شعرا خفيفا، بدا كذيل ابن آوى، تركه يسترسل، ليخفي به غضون عنقه الغائرة.

ظننت أنه تركني رهين رغوة الصابون، يريد امتصاص نفس من الهواء الندي، أو يود تدخين سيجارة أولمبيك الشقراء، أو فقط يريد تثبيت كال شمة، هنيهة ثم ولّى مقبلا عليّ، منكّسا هامته، وهو يستغفر، ويتعوذ بالله من الشيطان الرجيم. أجال بصره في المرآة ممتعضا بحثا عن وجهي، عيناه الخابيتان بدتا صغيرتين، وضيقتين، خلف زجاج نظارتيه الطبيتين، السميكتين، المشدودتين بخيط أسود إلى الرقبة. وقد تنهد تنهده طويلة، ثم زفر بآهة عميقة، ولسانه ما انفك يستغفر ويتعوذ، بينما أنا غارق في بحر تكهناتي، أبحث عن سر تلك التنهيدة الحادة، والآهة السحيقة، المنبعثة من جوف معدته: أتراه تذكر موعدا مهما، وفوت على نفسه فرصة لكسب صفقة مربحة، أم ترى جاره بائع الإسفنج أغاضه، أم ترى سهام المديونية أدمت فؤاده، فنزف تأوها واستغفارا، أم ترى ذخيرته من شفرات الحلاقة نفذت، والذقن موشح بالبياض، لا هذه ولا تلك، أكيد أن شعر رأسي الناعم، اللمّاع، الذي أتباهى به أمام أقراني، وزملائي، وزميلاتي. قد صار

مرتعا لأسرابِ الصيبان، و جحافلِ القمّلِ والقرّادِ، لعنة الله على الهيبي، وما يأتي منه.لم أستطع الخروج من خضمّ حيرتي لأوجه إليه السؤال مباشرة عم حلّ به ، إلى أن انتشلني هو منه قائلا:

– نظرت نظرة اشتهاء إليها.

– حتى أنا نظرت إليها باشتهاء وبتلذذ.

– هل رأيتها أنت أيضا؟

– نعم.

– متى، وأين؟

– قبل أن أدخل إلى الصالون، رأيتها ناضجة تنتظر فقط من يمد يده ليلتهمها.

– أين؟

– رأيتها تتبختر راقصة في المقلاة.

– أية مقلاة؟

– وهل هناك من مقلاة، غير مقلاة جارك السفانجي؟

– عمن تتحدث؟

– عن الإسفنج.

– ياسيدي، أنا أتكلم، عن تلك المرأة التي مرت، وأنا أطلي ذقنك بالصابون.

– ذلك الشبح المتلفع بالبياض، الذي مرق قبل قليل منتشيا بصوت حذائه؟

– أجل، كانت ترتدي حايك، أستغفر الله، وأعوذ به من الشيطان الرجيم. إن النفس لأمارة بالسوء!

بعدما أنهى عمله بنجاح دون ندوب، أزاح المنديل من حول عنقي، وحمل قارورة عطر، وشرع يضغط على كرية صغيرة، بحجم بيضة، موصولة بأنبوب مطاطي إلى زجاجة، فراح يبخ على ذقني رذاذ الكولونيا، الذي عادة ما يجعل شعر رأسي يتقنفذ، وعينيّ تدمعان.

بركان/2011/12

بهاء

استيقظت بهاء صباح اليوم الذي تلا العاصفة متثاقلة، كان صباحا رماديا، كئيبا كوجه عانس فقد ملامحه في حفل زفاف، استيقظت بهاء كما تستيقظ بنات جلدتها، تمططت مثل قطة مدللة مترفة تثاءبت، تمايلت كغصن فتي، طربت لفرقعة أناملها المتشابكة خلف الظهر، مثلما طربت لفرقعة عمودها الفقري، تثاءبت مرة أخرى وتمططت كأبطال الجمباز، ثم جمعت الملاءة والفراش فطوتهما ورتبتهما بعناية فوق الرف، ذاك هو دأبها من تلقاء نفسها.

لملمت أفكارها الساهمة كلها، إلا فكرة واحدة، أبت إلا أن تبقى شاردة كسحابة صيف يتيمة، أمطرتها بسهم وخزها في الذاكرة كلسعة عقرب، تذكرت الحلم الجميل، الذي باتت تحرسه وتذود عنه ضد الكوابيس المتوحشة برموشها الحانية، وفي لحظة سهو- سبحان من لا يسهو ولا ينام — انفلت الحلم الوديع، كما تنفلت ذرات الزئبق من بين الأصابع، تبخر نظير قطرة ندى في جوف صحراء عطشى، سقط من العينين العسليتين واختفى في دجى الليل الدامس، نظير نفحة طيب في تيار هوائي جارف أرعن.

انزوت بهاء في ركن حزين، قرفصت مطأطئة رأسها، تدلت على الجبين خصلة ناعمة كأنها تواسيها في أقسى لحظات حزنها، نزعت ريشة من

جناح المحبة المخملي، وشرعت ترسم على بساط الشوق الملتهب بألوان الطيف حلمها الجميل الوديع. بدأت بملامح الوجه الصبوح، والثغر الباسم، فالصدر الفارع، الذي طالما أوت إليه محتمية من زمهرير الليالي الداجية، ثم الذراعين الحانيتين اللتين طالما توسد تهما ونامت عليهما ملء جفنيها قريرة العينين، حتى إذا ما سوته وفي أحلى وأبهى صورة ما شاءت شكلته، نفخت فيه من روحها الحالمة روحا أسدلت عليه جناح الدفء والحنان، بدأت تناجيه وتناغيه، سمع حسيسها تمساح أبله، اقتحم غرفتها، حدج فيها بعينيه الناتئتين مثل حلزونين عملاقين، انقض على الحلم الوديع، زج به بين فكيه الباطشين، ثم راح يسحقه وهو يحملق ببلاهة في بهاء، تكلم كما تتكلم عبوة ناسفة، بصوت خشن كضريط ديناصور فقال: هذا ليس حلما جميلا كما تتوهمين، حرك خطمه يمينا و شمالا، قهقه ملوثا سكينتها النقية بصوت يشبه تكسر جلمود صخر هوى من عل؛ واستأنف كلامه موضحا، هذا كابوس حررتك من براثنه، ثم أخذ يذرف الدموع العطنة من عينيه الوقحتين على خذيه القذرين المقرفين، كما تسيل وتجري المياه العادمة النتنة، في حي شعبي هامشي يفتقر لقناة الصرف الصحي. بينما كانت بهاء تتنهد بصعوبة وهي ترميه بنظرة حانقة، ترقرقت في عينيها المشرعتين، دمعتان صافيتان، تدحرجتا على الخدين الأسيلين كحبتي بلور خالص. ومن الصدر المكلوم، تسللت زفرتان لافحتان، كوتا الشفتين الذابلتين، ومع كل دمعتين، وكل زفرتين، كانت بهاء تذوب تتقلص وتحترق.

ومع إشراقة كل صباح كئيب كوجه عانس في حفل زفاف فقد ملامحه، كانت بهاء تجمع، وتطوي، وترتب فراشها فوق الرف، وتلملم أفكارها الشاردة إلا فكرة واحدة تبقى تائهة كسحابة صيف يتيمة، تمطرها بسهم يخزها في الذاكرة كلسعة عقرب؛ فتقرفص في الركن الحزين، وتطأطئ رأسها منتحبة تنزع من جناح المحبة المخملي ريشة، وتبدأ ترسم على بساط الشوق الملتهب الحلم الوديع.

ومن جديد يتسلل التمساح المتعجرف إلى الغرفة، فيبطش بالحلم ويسحقه أمام ناظري بهاء ثم يدلف إلى مستنقعه الآسن وهو يتبختر في مشيته يجر وراءه ذيل السخط والكراهية، تاركا بهاء، في الركن الرطب المعتم الحزين، مقرفصة تجتر اللوعة، وتبتلع غصة مرة، غصة حب حلم موؤود، وهي تذوب تتقلص وتحترق، والدمع الهتون ينغل المقلتين، والزفرات اللافحة تنغل الرئتين.

بركان ماي 2003

حوار

فيما كنت أتأهب لسلخ يراعي عن جلده، لألطخ بحبره بياض الصفحة العصماء، رنّ الهاتف، فالتقطته من فوق المنضدة، فإذا بأحدهم، يخاطبني بلهجة خشنة، وبقدر كبير من التهكم، والاستهزاء، والعجرفة. تكلم كأنه يراقب سكناتي، وحركاتي من عين الهاتف:

– دع القلم في غمده، واترك الورقة تنعم ببياضها.

–.....!

– ألا يعجبك اللون الأبيض، أيها الشقي التعس؟

– بلى، ولكن أخبرني من تكون؟

ضحك ضحكة؛ شممت منها عبق التاريخ، وأريج مداده، سكت هنيهة، ثم أجابني:

– لا تتعب نفسك المضيومة، لقد سبقت رائحتي كلامي، أنا هامان؛ يعجبني الأبيض من الألوان، لذا آمرك ألا تكدر صفو الورقة بحمقك الأسود الحزين.

– إنّه لون جميل، ولكنّه لون الكفن أيضا، والكفن يحتاج إلى جثة يستر عورتها، ولا أجد جثة ألفها بكفني سوى حماقاتي.

– على أية حال، ليس هذا موضوع حديثي معك، فابتلع حمقك إلى حين، ودع الكفن مطويا.

– أجل ها أنا قد فعلت، فما سر اتصالك بي؟

– بلغني أنك تحقد كثيرا على الفراعنة، حتى كادت تنهد أهراماتهم الشامخة، ألا تخشى لعنتهم؟

– صدقت وصدق مخبروك.

– ما سبب هذه الكراهية التي تكنها لأسيادي وأولي نعمتي المقدسين العظماء الأطهار.

– العظماء الأطهار؟ هاهاها.

– لماذا تضحك؟

– أضحكتني وأنا حزين.

– أ فيما قلت ما يثير الضحك؟

– نعم، يا مسكين!

– ماذا دهاك؟

– كلمة عظماء، هي التي أُثارت في نفسي الضحك يا هامان.

– ولم؟

– لأن فراعنة زماننا لا عظمة لهم بل هم أحقر خلق الله في أرضه.

– أرجوك أفصح.

– سأختصر لك المسألة كما يلي: لقد عرفنا عن فراعنة زمانكم، شدة البأس، وقوة البطش، واحتقارهم لعدوهم، فالتاريخ يشهد على ذلك، لا تستطيع أن تنكره.

– أجل كنا كذلك جبارين بطا شين، وناقمين على بني إسرائيل استعبدناهم وذبحنا أبناءهم واستحيينا نساءهم فما الغريب في الأمر يا ترى؟

– الغريب في الأمر أن الآية قد انعكست وانقلب السحر على الساحر.

– أرجوك حدثني بلسان عربي مبين، فأنتم معشر العرب أهل فصاحة وبيان، ولا تحاورني بالألغاز، هيا أسرع.

– كل ما في الأمر يا معالي الوزير؛ أن مصر الفراعنة، باتت تكن من الحب والمودة لبني إسرائيل، ما لم يشهد التاريخ له مثيلا، حتى لو أن هوميروس، قدّر له أن يعود إلى الحياة لاستبدل قولته الشهيرة عن مصر: «مصر هبة النيل"، «بمصر عبث النيل، " أو " مصر دمية النيل ".

– ولم تقول هذا عن أقدم أرض تشكل فيها التاريخ ورفرفت رايته عاليا في سماء الكون، تحت شمس الحضارة العريقة لمئات الأجيال.

– لأنها صارت ألعوبة في يد بني " قردون " وبعد عهود وعصور، من العز والشموخ، نزلت إلى أسفل درجات سلم التاريخ الحضاري، مرّغت أنوفكم في وحل التاريخ.

– خفّض صوتك، لو يسمعك مولاي الفرعون الأعظم، لجهّز لك جيشا، يأتي بك ولو كنت في بلاد الهند والسند.

– ليته يسمع ويفعل.

– ألا تخشى بطشه؟

– بلى ولكن لأرى ما هو فاعل ببني قردون.

– أنا قلق وحائر مما أسمع، يكاد هرمي الشامخ المنيع ينهد من فوقي.

– ستتمنى أن يخسف الله بك، وبهرمك الأرض، لما ترى نفسك تستحلي قبلات بنيامين نتانيهو، وتبسط له الزرابي ليتغلغل في صروح مصر، متفيئا ظل راية آل "صهيون"، وهي ترفرف في سماء القاهرة، وفوق صفحة النيل المدنّس عفوا المقدّس.

– هيا بسرعة أخبرني، كيف حدث كل ما ذكرت؟

– على رسلك لا تستعجلني، فاليوم يوم عطلة، وثمن المكالمة ليس مكلّفا للغاية.

– لم أفهم شيئا؟

– لقد فاتكم هذا الابتكار العجيب "الهاتف".

– لعله ابتكار من أهل اليمن، فالحكمة يمنية، أومن اختراع شعب بلاد الهلال الخصيب، الذين ابتكروا الكتابة وأنزلوا القوانين من السماء إلى الأرض؟

– تقصد " العين بالعين والسن بالسن و.".

– لا يا هامان، فقد خاب ظنك، فنحن آل يعرب رغم تاريخنا المشرق، أصبحنا أمّة تستهلك ما لا تنتج، رغم ما نملكه من ثروات، كل

شيء تستورد من الخارج حتى الرغيف، وملابسنا الداخلية إناثا وذكورا، صغارا وكبارا.

– كفّ عن هذا الكلام، أكاد أتقيأ، وحدثني عن " أم الدنيا ".

– بل، سمّها كما أسلفت: " عبث الدنيا"، ألا ترى أنك شغلتني عنها، وأخذت من وقتي الكثير؟

– هذا شرف لك، أيها المسكين الناكر للجميل، فماذا كنت ستفعل بزمن الدنيا كاملا، لو تركتك تعتدي على تلك المخلوقة البريئة.

–.....!

– أقصد الصفحة البيضاء.

– على أية حال، ما هي إلاّ لحظات، وينقطع خط الاتصال بيننا.

– لماذا أنت مستعجل، تريث، حتى تحكي لي عن حال العرب، والفراعنة.

– لست بمستعجل، إنما ستطفأ الأنوار، وينقطع حبل الوصال بين الأمصار العربية.

– ولم، هل ثمة خطب محدق بالعرب، أم دبّ بينهم خلاف حول ناقة باسوس ثانية؟

– لا، لا خلاف بين آل يعرب فهم متماسكون، متراصون، في خريطة العالم كأسنان الحمار، لا فرق بين مشرقهم، ومغربهم، إلاّ بالتهافت على الحضن الغربي.

–..... !

– كل ما في الأمر، أن هناك دولةً عظمى تدعى أمريكا، و– بالمناسبة– هي أقوى دولة في العالم، قد حشدت جيوشها، وأعدّت لبغداد، ما استطاعت من قوّة دبابات، وضاقت به السماء طائرات وصواريخ، لتسوي بأهلها الأرض، وتعيدهم إلى عصر ما قبل التاريخ.

– دبابات وطائرات؟

– ذلك سبق خطير فاتكم أيضا.

– أقلت بغداد، مهد نبوخذ نصر، وحمو رابي، وإبراهيم أبي الأنبياء؟

– نعم، بغداد الرشيد والمعتصم، والإمام الحسين، وعبد القادر الجيلاني.

– وما السبب؟

– لتقلّم أظافر العراقيين، الذين خمشوا وجه آل صهيون القميء.

– أي جرم ارتكبه أبناء سومر حتى تشن عليهم الحرب؟

– ذنبهم، أن يدهم تطاولت على شعب الله المختار ذات غفلة.

– ما هذه الأصوات، لم أعد أسمعك بوضوح؟

– إنه أزيز الطائرات، ودوي قنابل الهاون، والطوما هوووووو.ك!

– وماذا؟

– وداعا، عندما تضع الحرب أوزارها، سأحدث لك من كل هذا أمرا.

اشتعل أوار الحرب، وتشعبت ألسنة لهيبها وتمططت، فلما تحسست صفحتي البيضاء، وجدتها رمادا، فلا قرت عين هامان.

حرب لم تكف رحاها عن الدوران، ولم تخب نيرانها، حتى يُسعف ضحاياها، على لفظ أنفاسهم الأخيرة في لحظة سكون، لحظة هي أعز من شربة ماء لدى محتضر.

عاود هامان الحديث معي، بعد أن استعان بجيش من السحرة، لربط الاتصال بيني وبينه.

- آلووو.

- نعم، هامان؟

- بات صوتي مألوفا لديك؟

- في الحقيقة صوتك متهدج، ما كنت أستطيع تذكره، لولا ظهور اسمك على شاشة الهاتف.

-كيف؟!

-كل هذا؛ يعود الفضل فيه إلى بطاقة بحجم ضفرك، تختزن الكثير الكثير، من المعلومات، والأرقام، والأسماء، وحتى الصور.

- وهذه تقنية أخرى لم تلحقوها.

- هل من جديد على الساحة الفرعونية؟

- ثمت حدث هام، بل يراه البعض حدثا تاريخيا حدث في مصر.

- ماهو؟

- لقد استفاق أهل النيل ذات صباح صقيعي، من صباحات يناير المتجمدة، فحطموا هرم أحد فراعنتك، ثم...

- ثم ماذا؟ آلو، آلو،
- طوط، طوط، طوط....
- اتصالات.. ترحب بكم لقد نفد اعتماد ...

لعنة الله على هاتفي الجوعان، لقد انقطع الاتصال بيننا؛ وفي نفسي شيء من الحكي عن سقوط فرعون القرن الحادي والعشرين..

بركان 2000

ملاك

ببذلته النظيفة المميزة، ووجهه الحليق، وقف عند رأسي، وأنا ممدد على سريري الأبيض، أقاوم ببسالة آلامي الغائرة في صدري، ورغم قسوة الظرف وشدة بأسي سألته:

– ما سبب سقمي يا سيدي؟

انحنى بلطف وهمس في أذني وقال:

– سقمك يمكن أن يعالج.

ما كدت أرسم بسمة أمل على ثغري، حتى أردف قائلا:

– ولكن الأمر يحتاج إلى صبر وشجاعة منك.

– كيف ذلك؟

– الأمر يحتاج إلى عملية جراحية.

– لماذا أيها الحكيم؟

– لا بد من أن نشق صدرك ونفتح باب قلبك، لنستأصل الورم الخبيث.

– ..... !

– حتما سنقضي على الداء.

– بابه ليست موصدة.

قال وهو الواثق من حنكته وتجربته:

– إن ورما خبيثا يعبث بشرايين فؤادك ويهدد نبضه.

– أيها الحكيم، إن قلبي لم يخدعني قط، ولم يخذلني أبدا حتى في الأمور العاتية والظروف القاسية الآسية، كان وجيبه دائما عاديا ووديعا.

–..... !

– إن قلبي يا سيدي، هو مستودع أفراحي وأتراحي، وهو مرتع آمالي العذاب، وهو ينبوع الحنان الدافق، فيه تنمو مشاعري، وتينع، وتزهر عواطفي، فتثمر أزهارا وورودا، وعهود حب وود تسع الكون بما رحب.

– ..... !

– أجل يا سيدي وفي قلبي تغفو قريرة العين ذكرياتي الجميلة التليدة.

–..... !

– قلبي أيها الحكيم لا يمكن أن يخذلني أو يخدعني، ربما خدعتك آلتك الذكية، لأن قلبي وعدني ألا ينحني أمام عوائد الدهر وصروفه.

–.....!

– ثق بي أيها الحكيم الخبير أن قلبي مستعص على خسة الغدر ودناءته، ومترفع عن وقاحة الجبروت وطغيانه، وممتنع عن ضراوة القسوة وفظاعتها.

–..... !

– قلبي آمن بين أضلعي، نقي، تقي، طاهر، نقاؤه في رقة أحاسيسه وسمو عواطفه النبيلة، طهره من الإيمان الذي يفعمه، لن ينزعه من صدري أحد، ولن تدنس طهره آلة.

–..... !

– قلبي يا سيدي ملاك ...ملاك...ملاك.

استنجد الحكيم من جديد بآلاته الفائقة الذكاء، ليتأكد مما سمع ورأى، فرأى ما رأى، رأى ما أدهشه، فأقبل يزف البشرى لمن حوله قائلا:

– أيها السادة، صدقوني قلب السيد ملاك.. قلب السيد ملاك..قلب السيد ملاك...

لقد رأى جذوة الإيمان تشع فيه نورا وهاجا، وسمع رفرفة جناحيه، فإذا هي تسبيح يصعد إلى السماء.

– يا إلهي قلبك يدق تسبيحا، يضخ صلاة.

– اللهم لا شفاء إلا شفاؤك سبحانك اللهم...

– لن يدنس أبدا لن نكدر صفاءه لا بذهب ولا بحديد.

– حمدا لله، الذي لا يحمد على مكروه سواه!

بركان– 2004-05

حظ سعيد

الهواء كئيب، الزقاق كئيب، عار من الفرح، إلا من الحفر والنفايات، البيوت الواطئة استسلمت للحزن، خالية من أصوات البشر، وجوهها شاحبة كوجوه العجائز في حفلات التأبين، يلفها الوجوم من كل جانب، كأنما انتشلت من مخلب إعصار عنيف. سعيد في يوم عطلة، ما كان له أن يكون نغمة نشاز في هذه الأجواء الكالحة، فيخرج من البيت وهو يدندن أنشودة لا تخلو كلماتها وموسيقاها من شجن دفين، ويترك الكتيب الذي أهدي له بمناسبة تفوقه في الدراسة، سيما وأنه أشرف على نهايته، وهو يعي جيدا أن الأمور بخواتمها، لو لم تسخره أمه لإحضار الخبز من المخبزة .

هذا الصباح الحالك، وهو في طريقه إلى حيث أمرته أمه، صلى سعيد لربه وابتهل، كي يعثر على ضالته، عله يجدها أمام عتبة باب ما، أو عند البقال، ولم لا تكون بانتظاره في المخبزة. لقد تاقت نفسه إلى قراءة كتيب، أو مجلة، أو صحيفة، أو حتى وريقة من وريقاتها. لكنه لا يملك جيبا يساعده على اقتناء الكتب من المكتبة، فقط يجمع ما يجود به عليه الرصيف تارة، والبقال تارة أخرى من أوراق الصحف والمجلات. ويكون سعيد سعيد الحظ، إن كان القرطاس ملونا.. ذلك هو دأبه كلما تأهب للخروج من

المنزل، لقد تعود على التقاط الأوراق الملقاة في الشارع، ليشبع جوعه إلى القراءة إن حالفه الحظ .

وكأن باب السماء كان مشرعا على مصراعيه؛ فلقد لفت نظره ما لم يتصوره قط، لفة من الجرائد وضعت بعناية عند قدم عمود الكهرباء، على عجل التقطها سعيد، أحس بأنها ثقيلة شيئا ما، تحسسها بأنامله الفتية، فإذا هي تلف علبة في حجم كتاب الجيب، طار سعيد فرحا، تأبط اللفة واشترى رغيفين، وأقفل راجعا إلى البيت، لا يلوي على شيء.

بعد أن سلم والدته التي كانت تنتظره عند باب البيت الرغيفين، تسلل إلى حيث تقبع محفظته، ودس فيها العلبة المنمقة، واكتفى بقراءة الجريدة. سيقرأ سعيد كثيرا، وسيظل يقرأ بشهية ملء النهار، وربما زاد طرفا من الليل، ولكن عقله، كان يهفو إلى العلبة ويفكر فيمن صنعها، وماذا تضم بين حناياها، وكم هي رقيقة وفنانة الأنامل التي أبدعتها، قال سعيد في قرارة نفسه.

لم يقاوم رغبته الجامحة في معرفة ما بداخل العلبة، فتسلل مرة أخرى إلى حيث تقبع محفظته في هدوء، وأمن وسلام، واستل العلبة المنمقة، كم هي جميلة، رائعة المنظر، بديعة الصنع، لا شك أن ما بداخلها أجمل وأروع وأبدع، همس لنفسه، وأضاف: قد يكون ما تضمه بين ثناياها كتابا وديعا، قد تكون ساعة نفيسة، انبسطت أسارير سعيد، وهو يداعب العلبة بلطف، ورقة، وحنان، ونعومة، ابتسمت لها شفتاه، وخفق لها قلبه، اعترته قشعريرة من الفرح الجامح، وهو يتأملها، فرح لم يحس به منذ زمن طويل، طويل طويل،

منذ أن استشهد أبوه. استهوته هذه الفاتنة، وسحرت لبه بثوبها الناعم الزاهي، وخيوطها الذهبية، التي توشحها، كما تحتضن ذراعي صبية دميتها. في كل لحظة كان يهم فيها لفك هذه الخيوط، كان يستفزه سؤال خفي: ويحك ألا تكفيك هذه الألوان الخلابة؟ وهذا الشكل الجذاب؟ وهذه التنميقات الباهرة؟ التي تنضح بألف ابتسامة وابتسامة؟ لم يقاوم سعيد رغبته الجامحة هذه المرة، تسللت أنامله الفتية الوديعة إلى الخيوط الذهبية العجيبة، لتفك العقدة، انفتحت أسارير محيا العلبة، فانبجست منها اثنتا عشرة ابتسامة، كل ابتسامة تشبه سابقتها، إلا الابتسامة الأخيرة، فكانت عبارة عن دوي انفجار فظيع، حطم قلب سعيد الذي طالما احتضن العلبة في شوق وحنان، ورقة وسلام، تمزقت أوتاره، وتناثرت ذراته، وتلاشت ألوان العلبة المنمقة البديعة، تاركة وراءها جرحا عميقا، ينزف دما، وطهرا، وبراءة، وثأرا.

بركان 2005

وميض

استيقظت وميض استيقاظ المقبل على الحياة، استحمت، توضأت، تطهرت من كل رجس ودنس، وتلفعت بالبياض، وقامت فصلت، ابتهلت تضرعت،سبحت وذكرت ربها حتى اغرورقت مقلتاها، وتدحرجت على الخد الأسيل، بلورات الرضا.ثم تجردت من بياضها، فسربلت وأرخت شعرها الفاحم على متنها،وجلست أمام المرآة تحمد الذي أحسن خلقها، كما أحسن خلقها.الذي في أحسن صورة ما شاء ركبها،تزينت وأمعنت في التجمل والتجمل، حتى بدت كلوحة فنان مبدع، أفنى أنامله في إبداعها.لبست لباس بنات العصر، وتلت "والعصر إن الإنسان لفي خسر".تمنطقت بحزام لا يشبه حزام بنات العصر،وحشت حقيبتها أغراضا لا تشبه أغراض بنات العصر،تأبطتها تماما كما تفعل بنات العصر.نزلت إلى الشارع ،ملأته فتنة وغنجا كما تفعل بنات العصر .تفرستها وافترستها عيون جائعة، نهمة، شرهة ،من خصلات شعرها الهفهافة حتى أخمص قدميها،عيون قردة وخنازير كانت تكتسح الرصيف ،والحانات ومحطات الحافلات.استفزها أريج عطرها الأنثوي الفواح، وإيقاع خطوها الرنان، وترنح قدها المياس. انساق وراءها أحد القردة الضالة، في سعي محموم لمرافقتها، عله يقضي منها وطرا، لقد استبدت به غلمته الهائجة، فدنا منها وقال:

– كود إفنين هاو آريو؟

فردت بلسان يقطر سحرا حلالا، وسما رعافا:

– أيام فاين تانكس.

– هيا اركبي، سيارتي، إنها فاخرة، والرحلة عبرها ممتعة.

– بالتأكيد ستكون الرحلة ممتعة جدا.

– أنا حديث عهد بهذا البلد، أرض الميعاد،أين تريدين أن نذهب؟

– إلى أي مكان فيه قردة وخنازير، أقصد الناس والحياة.

ضحك مستغربا من اقتراحها وقال بلهفة متلهف: إلى الحديقة الكبيرة إذن. ثم استأنف يحاورها معرفا إياها بماهيته.

– أوكي،أنا وافد من روسيا،وأعمل مهندسا في بناء المستوطنات، و أنت؟

– أنا من أورشليم، فيها ولدت، وفيها أموت، ومنها أبعث حية

– وماذا تعملين في حياتك؟

– أشتغل مروضة قرود، ومربية خنازير.

ضحك حتى بانت تشكيلة أسنانه وأضراسه المنخورة بفعل الفودكا. في الحديقة العمومية الكبيرة، أخرجت آلة تصوير من حقيبتها التي لا تشبه حقيبة بنات العصر، تلت "والعصر، إن الإنسان لفي خسر،"وقالت للملأ:"ليأخذ لنا أحد صورة هنا". حبذا هو الفكرة، والتصق بها وسط حشد كبير من القردة والخنازير، وقالت:"عند الإشارة اضغط على الزر".

– ليكن؛ وان، تو، ثري، طق؟!

انبعث وميض خاطف من الآلة، فكان الشرارة التي فجرت الحزام الذي لا يشبه حزام بنات العصر، نسفت الجسد البض، الجسد الذي استحم وتوضأ وتطهر، فصلى، ثم تضرع حتى صار شعاعا يشق برزخ السماء إلى الفردوس الأعلى.

في المساء، كان مذيع النشرة يعد ضحاياه، مكدود الوجه، عابس النظرات، وأشلاء قردة، وخنازير، تغطي عرض الشاشة.

بركان 2005

الفهرس

الشيخ قارون.....7
الأب العجوز.....15
المتسول.....21
ليندا.....27
اختراع.....37
درس في التربية التشكيلية.....45
الحلاق.....51
بهاء.....57
حوار.....61
ملاك.....69
حظ سعيد.....73
وميض.....77